روحٌ عُمانية تتنفس في جُزر القمر..

عائلة يجتمع شملها بعد سنوات من الضياع

حاوره: سيف المعولي

قصةٌ يُمكن أن يقال عنها بأنها من حكايات ألف ليلة وليلة، فأحداثها وتفاصيلها تؤكد صدق «الأمل» والإيمان بأن «كل شيء ممكن». أبطالها يتوزعون على دولتين، لكن الدم بينهم واحد. كلٌ منهما سعى إلى الطرف الآخر، لكن الظروف أحالت دون ذلك في مرات وسمحت في مرة واحدة فكان «اللقاء».

قصة قد تتشابه مع قصص كثيرة في هذا العالم، لكنها تختلف في أن بطلها الأول تميّزه بضميره الإنساني والحي عندما كشف سرّه الدفين، وأخبر عائلته بما لم يتجرأ آخرون على البوح به فتسببوا في ضياع كثير من الأمل الذي ظل بعضهم يبحث عنه حتى الآن ولم يجده.

تبدأ الحكاية كما يرويها عبدالله ودعان من الهجرات العُمانية إلى جزر القمر، وبقائهم فيها وتزاوجهم فيما بينهم، أو اختلاطهم بالأفريقيين الموجودين في هذه الجزر.

يقول عبدالله: عائلتي جاءت من ولاية صور، وتزوج جدي بجدتي التي هي من أصول عُمانية أيضا في جزر القمر، لكنه عندما كبر رجع إلى صور بناءً على طلب أولاده من امرأته الأخرى الموجودة هناك، تاركًا خلفه جدتي وهي حامل، لكنّه عندما وصل هناك أنّبه ضميره وأخبر أولاده بأن لهم (أخا أو أختا) في أفريقيا وأن عليهم البحث عنه أو عنها).

بدأت عملية البحث من قبل الأبناء عن أخيهم أو أختهم، عبر رسائل بريدية متتالية حيث لم تتوفر وسائل أخرى غيرها في تلك الفترة، لكن اسم مدغشقر الذي كانوا يضعونه ظنا بأنها وجزر القمر دولة واحدة كان يحول دون وصول هذه الرسائل إلى مكانها الصحيح.

في الطرف الآخر من الحكاية أنجبت الزوجة الحامل بنتا سموها شيخة، كبرت وترعرعت، ورفض أهلها تزويجها لأي أحد خوفا من اختلاط الدم العربي بالدم الأفريقي - كما يقول عبدالله ودعان-، حتى جاءها رجل من أصل يمني فقبلوا به.

يقول عبدالله: والدي أصله من اليمن وتحديدا من حضرموت، وقد ولد في جزر القمر لكن جدي أرسله وهو صغير إلى حضرموت ليتعلم اللغة العربية هناك، وعندما رجع من هناك تزوج أمي (شيخة)، وأنجبتنا أنا وأخوتي.

ظلت الحكاية تتحرك في كل طرف وفق ما هو مسيّر لها دون لقاء، وظلت رسائل الأخوة تتوالى إلى أفريقيا دون توفيق، حتى سقط اسم مدغشقر سهوا من أحدها فعرفت هذه المرة طريقها الصحيح إلى جزر القمر وإلى بيت شيخة التي انتعش الأمل فيها لرؤية ملامح أبيها الذي لم تره قط.

يصف عبدالله هذه اللحظات: كنت صغيرا عندما وصلتنا الرسالة، لم أكن حينها أجيد العربية، فقام أبي بقراءة الرسالة ففرحت أمي كثيرا حتى أنها بكت من شدة الفرح».

رغم وصول الرسالة المبشرة إلا أن فصول الحكاية لم تكتمل بعد، فعبدالله حصل على منحة دراسية لتعلم اللغة العربية في المملكة العربية السعودية وتحديدا في مدينة جدة، وأنهى دراسته الثانوية هناك، والتحق بالجامعة لتبدأ فيها خيوط الأمل تعود من جديد، يقول ابن ودعان: أثناء دراستي في الجامعة في تخصص إدارة الأعمال والاقتصاد رأيت شبابا عُمانيين، ورأيت في أعينهم الأسئلة الكثيرة حول مظهري، حيث إنني كنت ألبس الدشداشة العمانية وأعتمر الكمة العمانية أيضا، لكنني لست عمانيا! حتى جاء اليوم الذي أخبرت فيه أحدهم واسمه جمعة بقصتي فتفاجأت برده: أنا أعرف أخوالك.

جمعة لم ينسَ الحكاية وأخذ الخبر معه إلى صور أثناء ذهابه لقضاء الإجازة الصيفية، لكنه لم يرجع إلى جدة وحيدًا وإنما اصطحب خال عبدالله ليتعرف على ابن أخته التي ظلوا سنينا طويلة يبحثون عنها.

عبدالله ودعان استقبل خاله في المطار بفرحة كبيرة، وأخذه معه إلى بيت أخته التي كان زوجها يعمل في جدة أيضا، وهناك بدأت الحكاية تتجه إلى اللقاء الكبير بين الأخت وإخوانها.

خبرٌ كهذا لا بد أن تعرف به شيخة، فهي أحد أبطال هذه الحكاية، وهذا ما قام به عبدالله عندما أرسل لأمه رسالة يخبرها بلقائه بخاله، ومع الرسالة «خيرات» أتى بها خاله من صور.

تخرّج عبدالله من الجامعة في بداية التسعينيات من القرن الماضي وعمل في بنك التنمية الإسلامي في جدة، وانتظر حتى الراتب الثالث - كما يقول- ليطير بعدها إلى جزر القمر، ويأخذ أمه إلى حيث تشتاق روحها بالتنسيق مع خاله في صور.

الأخوة والعائلة في صور كلهم زحفوا إلى مطار مسقط للقاء «العروس وابنها» وهذا ما يصفه عبدالله قائلا: استقبلونا بموكب كبير من السيارات، ورغم بيوتهم الموجودة في مسقط إلا أنهم أصروا علينا الذهاب إلى صور حيث مهوى فؤاد أمي، ذهبنا من الطريق القديم الذي كان شاقا، ولساعات طويلة، إلا أن فرحتهم الكبيرة بنا، واستقبالهم البهيج بأمي أنسانا كل التعب والإرهاق».

أهل صور عُرف عنهم الكرم لذلك ظلوا يتنافسون في إكرام عبدالله وأمه شيخة. كانت الموائد في كل بيت ممتلئة بما لذ وطاب، وكانت

ضمير الجد أوجد الأمل... ورسالة خطية أنعشته

«الذبيحة» هي الأساس في كل عزيمة. أما شيخة فتزينت باللباس الصوري، وكأنها واحدة منهم بل إنهم اكتشفوا شبيهة لها في الاسم والشكل بين بناتهم.

عادت شيخة وابنها عبدالله إلى جزر القمر، وحبل الوصل مع أخوتها ظل ممدودا باستمرار، أخوها اشتاق لرؤيتها فجاء مسرعا مع زوجته بعد أسبوعين من زيارتها لهم، عبدالله من جانبه دعا أخواله وأولادهم في صور إلى حضور عرس ابنه محمد في جزر القمر فجاءوا ملبين دعوته. الزيارات ظلت تتواصل بين العائلة الواحدة إلى وقتنا الحاضر.

حكاية عبدالله وأمه شيخة مع أصولهم العمانية ألهمت بعض ممن لا يعرفون أصولهم للبحث عن الأمل، وهذا ما يعمل عليه ابن ودعان حيث يستثمر علاقاته الشخصية في السلطنة ودول الخليج لمساعدة من تقطعت بهم السبل في الوصول إلى نسبهم وأصلهم العماني أو العربي.

«أفتخر بأصلي العُماني، وأنا نصفي عُماني ونصفي قمري» بهذه العبارة أنهى عبدالله ودعان لقاءنا معه، وهو الذي أصبح الآن رجل أعمال معروفًا في جزر القمر، وبمقاولاته الكبيرة ارتبط بصلات قوية مع شخصيات خليجية كحاكم الشارقة، ومؤسسات حكومية وخاصة في السلطنة.